الانقطاع / الانحطاط:

– القرون الوسطى (476–1435م) في أوروبا تساوقت مع فترة العصر الجاهلي وما بعده إلى نهاية العصر العباسي.

– نقل القرآن اللغة العربية من أوهام الوثنية غير المثقفة إلى عوالم المنطق والعلوم، فتشكلت ثقافة عقلانية وفكر نقدي وتمدن.

– استفاد العالم العربي إذن من توجهه الإنساني وامتزاج مجتمعه وتفتحه ومن وجهته العقلانية والنقدية، فحوّل أعظم آثار الحضارات القديمة (يونانية.. فارسية..هندية) إلى دعائم مهمة لانطلاقته.

– قوة ثقافة **الشاعر** وغناها وتنوعها، كانت أساسية في تطور الفن الشعري، كما أن التساؤلات حول بلاغة القرآن الكريم (الإعجاز)، وحول جماليات الأسلوب الشعري القديم والحديث، فتحت المجال لتأسيس معرفة شعرية **ونقدية** قوية، اتحدت بتراث النقد الأرسطي الوافد، وأثارت أمهات المسائل المطروحة على ساحة أدبية واسعة ومتنوعة. فمن الإيقاع الثابت النمطي إلى الموشحات الأندلسية، ومن الصور الحسية البسيطة إلى التكوين الداخلي المعقد للعناصر غير المنظورة، ومن تأملات طرفة إلى فلسفة عويصة لدى أبي العلاء، ومن الدلالات الذهنية الجافة (الشعر الحكمي والتعليمي والمباشر عموما) إلى شفافية المعاناة الصوفية الباطنية، ومن الصرخات القبلية إلى الالتزام الحزبي (شيعة – خوارج..)، إلى الاستصراخ العام (سقوط بغداد ودول الأندلس).. مرت القصيدة خلال كل ذلك بألوان من المحاولات والمشاريع، وأسلوب **النثر** نفسه استجاب للتأثير اليوناني والفارسي لدى سالم وتلميذه عبد الحميد الكاتب، ثم استوى في أسلوب عباسي مولّد في طريقة ابن المقفع ثم الجاحظ، وقد هيّأ تنظيم المدينة العقلاني(إدارة وقانونا وثقافة) لتفجّر النص النثري إلى أشكال وأساليب، تعكس تنوع وتجدد المجتمع.

– **وبمرور** الزمن، اقترب العقل العربي من حافة التخلف، وسقط في الهوة السحيقة للانحطاط. لقد تضاعفت الانقسامات والحروب، وتواصلت الحملات الصليبية منذ أواخر القرن 11م/5 هـ، وضربات المسيحيين في الأندلس، وبدأت الفوضى والظلم تعم البلاد، ولم يصل القرن 13م/7 هـ حتى كانت علامات الخمول والوهن والتخلف بارزة.

– **إن جُلّ** الدارسين يعتبرون **سقوط بغداد** (656هـ/1258م)، أو نهاية جارتها دولة **الموحدين** العظيمة (668 هـ /1269م) نهاية للفترة الذهبية، واندماجا في ظاهرة التخلف. ويصادف هذا التاريخ– في الحقيقة – ولادة الشاعر الإيطالي **دانتي** (1321/1265م) صاحب" الكوميديا الإلهية "التي تعدّ إعلانا على نهاية القرون الوسطى وانطلاق أولى نسائم النهضة الأوروبية.

وينظر دارسون آخرون–لسبب أو لآخر– إلى استمرار بعض البيئات والممارسات الثقافية – على هزالها – واستمرار تواجد كيانات سياسية وتوسعات عسكرية، على أنه امتداد (متواضع) للازدهار السالف، فتكون في نظرهم نهاية **غرناطة** (1492) والمرينيين بمراكش (1465) والحفصيين بتونس(1574) والمماليك بمصر والشام (1517)، هي علامة السقوط والانحطاط. **وهذا التصور** منبثق من طبيعة النظرة إلى العهد العثماني، وعقم الأدب خلاله، ومن الدلالة التي لم يتفق حولها لكلمة (**الانحطاط**).

ويمكن الحديث عن **(محافظة وانقطاع)**؛ فقد عوضت روح التجدّد بالثبات، ونزعة البحث والنقد بالتسليم، واتجاه الابتكار والإبداع بداء الاتباع والتقليد، وفضيلة التفتح والحرية برذيلة الانغلاق والاستبداد، وهي كلها حالات ومفاهيم أجنبية عن الفترة العباسية الذهبية. لقد أصيب الإنسان ذاته، " الإنسان المتحضر، الذي فقد همته المُحَضّرة، فأعجزه فقدُها عن التمثل والإبداع..".

يرصد محمد أركون ثلاثة مستويات استمرت فيها المحافظة على (بعض) أشكال الحياة الفكرية:

– **كُتَّاب موظفون** وأدباء مقربون اتجهوا إلى جمع النصوص المختارة من المؤلفات المدرسية الكبرى وترتيبها وتصنيفها وتبسيطها بحيث تشكلت منها موسوعات ضخمة؛ كالنويري (1332م) وابن فضل الله العمري (1348) والدميري (1405) وابن منظور (1311) والسيوطي (1505). ويلاحظ الفرق بين "الحيوان" للجاحظ و"حياة الحيوان" للدميري: " الأول يتبع خط أرسطو ويبرهن على حس انتقادي وحرص على التحقيق يتبع تصحيح الأخطاء، والآخر يكتفي بجمع المعلومات المكتسبة من قبل وحشدها في ملاحظات مرتبة ترتيبا هجائيا".

– **علماء، مدرسون،** وبعضهم مارس وظائف رسمية، قاموا بإنجاز كتب تعليمية وشروح، للمؤسسات التقليدية(مدرسة– زاوية) والجامعات كالأزهر والزيتونة والقرويين. وهي إيجاز واختصار :ابن آجروم، ابن مالك، ابن هشام، التفتازاني، خليل..

– **مستوى مشيخة الطرق الصوفية** الذين يُسيّرون الجماهيرَ الساذجةَ المحرومة، الخاضعةَ لتقلبات الطقس والأوبئة والحرب. وأدى تصور إمكانية ممارسة اللامعقول والمتخيل والمقولة العاطفية لما فوق الطبيعي إلى خلق مقاومة لا تقهر تقف ضد تدخّل العقل الوضعي"؛ مثل القادرية (1166) والشاذلية (1258) والبدوية (1276) والعيسوية (1524)...

– رافق كل هذا **انقطاع عن الماضي** (سياسي، اجتماعي، اقتصادي، لغوي) وانقطاع عن العالم المحيط. وهكذا، رغم استثناء عبقرية عالمية فريدة كابن خلدون (1406م) وجغرافيين ومؤرخين متميزين كابن بطوطة (1377م) والمقريزي (1442م) والمقري (1632م) ولسان الدين بن الخطيب (1374م)، وابن تيمية (1328م)، لا يسعه إلا الإقرار بصورة الخراب العام.

– **لم يُسجّل** أي نقاش أو أبحاث جدّية بعد عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، فقد انقطع الفضول والبحث، بل والإبداع الملفت للانتباه أو المثير (للنقاش)، ولم يرَ خلفاؤه في إنجازاته الخلاّقة منهجا يضمن تطويره فرصةً أخرى للمعرفة النقدية، إنما عكف ابن الأثير (637هـ) والرازي (606هـ) على تلخيص أعماله وتجميع النتائج القديمة، وعندئذ تحول النقد – خاصة مع السكاكي (626هـ) – إلى **قواعد بلاغية جافة،** كونت في نظره، ولدى ورثته، التشريع الأوفى للجمال الفني، فراحوا يختصرون ملخصه ويشرحون ملخصاته: ابن مالك (696هـ) القزويني (739هـ).. وبلغ تكديس الأصباغ البيانية والبديعية أوجه في منظومات (البديعيات)، فتنافسوا في نظم العشرات منها، حتى احتوت بديعية صفي الدين الحلي(750هـ) 140نوعا بديعيا، في كل بيت نوع، وبلغ بها ابن حجة الحموي (837هـ) 143 نوعا، وابن جابر الأندلسي الضرير 127نوعا..

– **وهكذا، انطفأ توهج الفن،** وجرف سيل الصناعات اللفظية حقل الأدب، ومُسخت الكلمة حجارة ميتة تدور حول نفسها وتعبر عن الفراغ، فانقطعت الصلة بعهد الازدهار وخط الإبداع. فانحصر الشعر والنثر في مناسبات جدّ محدودة (قصائد في المولد النبوي– تهاني ومجاملات– منظومات تعليمية..) وتحول إلى ألاعيب لغوية

وبيانية، عُدت مقياس البراعة لدى أوساط أدبية منكوبة ومعزولة. كما تسلطت على الشعر آنذاك ظواهر مثل التخميس والتشطير والتضمين (الإيداع)، وتُبرز بوضوح انحسار الذكاء والذوق. لقد بعث الصفدي مثلا لابن نباتة قائلا من قصيدة:

أفي كل يوم منكَ عَتب يسوؤني (كجلمود صخر حطه السيل من عل)
وترمي على طول المدى متجنبا (بسهميك في أعشار قلب مُقتّل)..

فأجابه بقصيدة ، منها:

فطمتَ ولائي ثم أقبلتَ عاتبا (أفاطمَ مهلا بعض هذا التدلّل)
بروحيَ ألفاظ تعرض عتبها (تعرّض أثناء الوشاح المفصّل)
فأحييتَ وُدّا كان كالرسم عافيا (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)..

وهو أدب ينطلق من المبدإ العام (**ما ترك الأول للآخر شيئا**)، وقد قال مجير الدين بن تميم:

أُطالع كل ديوان أراه ولم أزجُر عن التضمين شعري
أُضمّنُ كل بيت فيه معنى فشعري نصفُه من شعر غيري.

فانتشرت السرقة وتحوير المعاني القديمة والتقليد الأعمى مع نزعة قوية للتزويق الشكلي، مثل التاريخ الشعري، وما يقرأ نظما ونثرا، والعاطل، وعاطل العاطل، والقصائد محبوكة الطرفين(أي كل أبياتها تبدأ وتنتهي بنفس الحرف)، وقد نظم منها صفي الدين الحلي 29 قصيدة بعدد الحروف سماها (الأرتقيات) منها:

أبتِ الوصالَ مخافةَ الرقَباءِ وأتتك تحت مدارع الظلماء

وكتبوا أبياتا تقرأ طولا وعرضا، كقول الحلّي أيضا:

ليت شعري لكَ علم من سقامي يا شفائي
لك علم من زفيري ونحولي وضنائي
من سقامي ونحولي داوني إذ أنت دائي
يا شفائي وضنائي أنت دائي ودوائي .

أو ما يقرأ من اليمين واليسار، كقول الأرّجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كلّ مودته تدوم

وهل يتقبل أو يستسيغ أحد قول يوسف الزياني في الرثاء:

هنيئا لك الجنان لا السعير يا كافل الأرامل يا بشير
لقد عشت سعيدا في رغد عيش وفزت بالشهادة يا أمير
ببلدة مستغانيم كان المثوى فنعم السكنى سكناك يا نحرير.

وانحدر **النثر** إلى أدنى درجات الإسفاف، لنقرأ لمحيي الدين بن عبد الظاهر من رسالة: " حرسَ الله نعمةَ مولاي، ولازالَ كلمُ السعدِ من اسمه وفعلِه، وحرفُ قلمه يأتلق، ومنادَى جودِه لا يُرخّم، وأحمدُ عيشه لا ينصرف، ولا عدِم متوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل، ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود، وما خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد، ولا عدوه إلا بلام الجحود". فتكديس المحسنات، ومصطلحات النحو لم يصبغ أيَّ جمال على القطعة، فليست إلا دورانا في الفراغ، وصورة للانحطاط

والبعد عن الإبداع المنبثق عن رؤية وفعالية حضارية عقلانية حية. فسقوط قيمة الكلمة، والتمزق الشامل، وانطفاء منارات العلم وراء هذا الضياع الكبير. أشار عبد الرزاق بن حمادوش (ق18م)– وهو أحد أبرز المثقفين ثقافة تقليدية في الجزائر العاصمة – في رحلته، إلى النقاش العقيم الذي يدور في بعض الدروس، وإلى غياب أي متقن لعلم الفلك في المغرب الأقصى آنذاك "وأما الحساب [يقول] والطب والهندسة، فلم أر من يبحث عنهما فضلا عمن يتقنهما". والحسين الورثلاني (1739–1778م) يقول في رحلته لدى مروره ببسكرة: "ولما دخلت مسجدها لم أجد قارئا ولا مدرسا سوى رجل واحد، متى يقرأ لوحه . وهو ملقى أمامه . يقرأه على غير أدب ولا استقامة، وأخبرني بعض أصحابنا أنه وجد رجلا واحدا يسرد البخاري وحده.. ولعمري إن هذا **أول دليل على الخراب** وأقرب الأسباب له.".